الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص.ب : ٤١٢٣ بيروت ـ تلفون : ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - Liban
B. P. : 4123 - Tél. : 232832

صاحبها ومديرها المسؤول
الدكتور سهيل إدريس
Propriétaire - Directeur
SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير
عايدة مطرجي إدريس
Secrétaire de rédaction
AIDA M. IDRISS

*

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ـ بناية مروة

الاشتراكات

في لبنان : ١٢ ليرة ■ في سوريا ١٥ ليرة
في الخارج : جنيهان استرلينيان او ستة دولارات
في أميركا : ١٠ دولارات ■ في الارجنتين ١٥٠ ريالا
الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ليرة لبنانية او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما
حوالة مصرفية او بريدية

الاعلانات
يتفق بشأنها مع الادارة

التحقيق

بقلم جميل كاظم المناف

محكمة الشعب ، او البرلمان زنزانة متعدده الاقبية تفيض بالساجين الذين يخيم عليهم اليأس والحيرة والعذاب . ومحكمة الشعب خلية لا تهدأ . لانها وقحة . ووقاحتها تنبعث من وقاحة رؤسائها . ففي غرفة منعزلة تطل على « نهر دجلة » تقيم فرقة التحقيق والتعذيب التي يرأسها كل من : خالد طبرة ، وعمار علوش وناظم كزار ، ويبلغ عدد جلاوزة الغرفة التسعين ما بين قائد شيوعي نابذ وملاكم محترف ومنبوذ وجد في امتهان التعذيب حرفة له ..

في كل ليلة يتصاعد الصراخ من تلك الغرفة المشؤومة حتى مطلع الفجر . ونحن المساجين نعيش في رعبة وهلع لان ايقاع الصراخ الانساني يهز قلوبنا هزا حتى لكان جميع مشاعرنا قد اندمجت في العاطفة الانسانية التي هي انعطاف وجداني تجاه البشر . كانت الوجوه واجمة وليس هناك معتقل يتكلم . بيد ان العيون كانت تعبر عن وجدان الساجين ازاء التعذيب الذي يجري كل ليلة في الغرفة التي تقيم فيها هيئة التحقيق التابعة للحرس القومي .. الا ان المعتقلين سرعان ما ينسون الصراخ في النهار ويندفقون في حماس يتكلمون عن الواقع الذي هم فيه وعن مسبباته وعن المعنى الذي تبرزه اللحظات التي هم فيها .. لقد الفنا مجيء شباب فاقدي الوعي من كثرة التعذيب كل ليلة كما الفنا الصراخ الذي استحال الى ترنيمة تعطي ما يتيسر للوجدان من مشاعر . والفنا المعاملة المشؤومة والاكل الرديء الذي يقدم لنا . تلك هي حياتنا يوميا . مشهد مرير . اسئلة نطرحها على كل معتقل جديد . وقليلون هم الذين يصمتون ولا يسألون .. كانت قضايا السجناء شيوعية وقومية الا ان اختلاف القضايا لم يمنع العواطف الانسانية التي كانت تمور في مشاعرنا من التعاطف . معتقل مشلول اليدين . واخر يهذي ويصيح . وثالث يضحك باستمرار . اما انا فقد نسيت الايام الاولى التي مضت على جنوني المؤقت الذي حدثني عنه بعض المعتقلين . نسيت ما يقارب العشرة ايام من اعتقالي . وقضيتي كقضايا الشباب العربي المعتقل بالمئات . انها قضية المعتقد والفكرة . فانا شاب وحدوي . وكاتب ناشيء . ولذلك فوحدويتي كانت كافية لالقاء القبض علي وتعذيبي في نظر الحرس القومي . ولقد وجدت فرقة التعذيب في ابحاثي ومقالاتي ما ينبئها بخطورتي واهمية مركزي . لقد مضى علي في السجن اكثر من ثلاثة اشهر رافقت فيها شتى فنون التعذيب والارهاب المعنوي ، والالام ما لا اجرؤ فيها على التحدث لان لحظات الالم البشعة وليالي التعذيب التي رافقتها يجعل الشعور الانساني متوترا في حالة شرحي للامور الجارية هناك .

طوال الخمسة عشر يوما التي اعقبت عودتي الى حالتي العقلية الطبيعية سمعت في الليل صراخا وعويلا ورأيت شبابنا يتعذبون ، وارجلا مكسورة واعينا زائغة . ونظرات لا زلت اراها حتى الان ، تلصق المعنى اللاانساني الذي تمارس به فرقة التعذيب اعمالها في خاطري . رأيت رجالا يضربون « بالصوندات » المليئة بالحديد والرصاص . يضربون طوال خمس ساعات او ست ، ثم يلفون في حديقة المحكمة فيصبحون مزبلة لجلاوزة التعذيب يلقون عليهم اعقاب السجاير والاوساخ .. واخرين يضربون على رؤوسهم طوال الليل فيصابون بالخبل حتى نستطيع

فرقة التعذيب أن تنزع منهم الاعترافات في حالات « الهذيان » التي تنتابهم . غير اني عرفت وسائل تعذيب أشد من الوسائل التي رويتها : فقد اختفى الصديق الوحدوي ، ع ، بعد أن عذب عذابا مبرحا . وقد تأكد ان جثته قد القيت في نهر دجلة بعد ان حشرت في صندوق صغير. لقد اصبح ، ع ، طعما للاسماك ، وطوال الايام التي تمر علينا في المعتقل كان كان واحد منا يحكي قصة تعذيبه للاخر . ذلك لاننا نجد لذة وسلوى في الحديث عن وضعنا . لقد التقيت بالسيد « خ »الذي عذبته فرقة التعذيب عاريا بعد ان ربطه فلول الجلاوزة الى اوتاد حديدية مدفونة بالاسمنت في الارض . وقد كان افراد الفرقة يضربونه على عضوه التناسلي وعلى ساقيه وما زالت ساقه اليسرى تحتفظ بآثار الصوندات والحروق الكهربائية .. وفي احدى الليالي قذفوا الى زنزانتنا برجل طويل عرفت فيه سيدا مهذبا قال لي :

ـ لقد كنت في « قصر النهاية » اربعة وخمسين يوما ، كل ليلة احرق بالكهرباء واصعق ثلاث صعقات أو اربعا . لقد احرقوا ظهري وساقي ولساني .

ورأيت بعدئذ جندياً شابا من بغداد اسمه متى مفلوع الرأس وقد حكى لي ذلك المنكود قصة تعذيبه وكيف ظل معلقا في سقف الغرفة سبعة ايام بلياليها . وكيف كان يعذبه الضباط البعثيون بقضبان حديدية وزن كل واحد منها اربعة كيلوات . وقد أراني ظهره الذي بدا لي كخريطة ذات أخاديد متتالية وهضبات متكررة كما اراني رأسه وقال لي : كان رأسي مشجوجاً ، وها انت ترى اثر الصلع الذي اصابني من جرائه ، لقد فعل الضباط البعثيون ذلك بواسطة القضبان الحديدية، وقصتي انني منهم بالشيوعية ، بمؤامرة ، لقد اتهمني موقوف اسمه جوحي وانا لا اعرف هذا الجوحي ولم اره من قبل ..

ـ لماذا اتهمك اذن ؟ .

ـ من كثرة التعذيب . لقد اخذ يهذي بعد ان اصيب بالخبل فقال أن شخصا يدعى متى هو شريكي . والطريف انهم وجدوا كثيرا من الرجال باسم متى الا ان اختيارهم قد وقع علي . اما انا فقد جلبت رجال الكنيسة التي انتمي اليها والناس الذين تربطني اليهم رابطة المعرفة الشخصية ..

وسكت متى ثم شد على ذراعي بقوة وقال : استاذ انت مثقف وتعرف الظروف التي يخضع بها الانسان لاقسى بيئة ومحيط . لقد انحلت قواي العقلية واصبحت اتكلم دونما ارادة . كفاي يرتعشان . ورأسي يتدلى على كتفي .. هل تصدق انني لا اتذكر ما قلته بعد ما دخلت الفيبوية ؟ تلك هي جادة الموقف المحصورة في لحظات متكررة تلف الشعور في دوامة مكرورة تحتم على من يوجد في محكمة الشعب ان يتخلى عن انسانيته . لقد عرفت ان كثيرا من الابرياء متهمون زورا بتهم شتى لان فرق الحرس قد تهسترت بعدما رأت نفور الشعب وابتعاده عن الحزب الذي تمثله . ان الحقد والكراهية في اعين فرقة التعذيب تطل علينا صباح مساء . فرقة التعذيب التي ترأسها شلة من البعثيين الحاقدين الذين لا يستيقظ وجدانهم . لان وجدانهم ابرد من عاطفة ميتة . اما افرادها فشيوعيون تخلوا عن شيوعيتهم . وعندما يعذبون زملاءهم في العقيدة يجسدون مركب النقص الذي دفعهم الى التعاون مع فرقة التعذيب . أن افراد هيئة التحقيق هم قادة الحزب الشيوعي واخلص الرفاق الذين كان يعتمد عليهم الحزب المذكور فقد برر عباس الخفاجي العضو الذي يعود انتسابه الى الحزب الى عام ١٩٤٧ بسلامة فكرة البعثيين وحراجة ظروفه المادية . اما ميرو وتاج وفائق عثمان فلم استطع ان اسمع تبريراتهما وان كنت اعلم انها توازي تبريرات عباس خفاجي . لقد عرفت ان قادة الحزب الشيوعي اناس يتخاذلون بسرعة امام الظروف الحرجة ويضحون بقواعدهم حينما تلوح لهم الحياة مرة وقاحلة .

***

كانت الساعة الثانية عشرة ظهرا حينما القي القبض علي من قبل الجاسوس عدنان عبد الرحيم . وحينما ادخلت الى المحكمة ، مقر

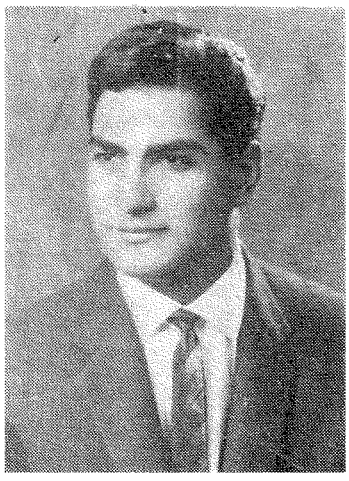

فرقة التعذيب العليا ، موثوق اليدين ، استقبلني افرادها بالتهليل ، تعبيرا عن فرحهم وابتهاجهم بمناسبة القبض علي . ملأت انفي رائحة الدم فاخذت اجول بنظراتي في اطراف الغرفة التي يبدو عليها انها مقر التعذيب . فابصرت الصوندات والادوات الكهربائية والعصي وحبال التعليق . لفتني عاطفة مشبوبة بعدما تنفست ضحكات الاوغاد الرنانة في جب التعذيب المنعزل عن الناس، وبعدما رأيت سحنات تنم عن لون وشكل جهنمي شيطاني النزعة. ويظهر ان السحنات التي رأيتها قد وجدت في بيئة التعذيب الوسط الطبيعي الذي يشدها الى الحياة . لقد تراءى لي ان الساديين يألفون البيئات اللاانسانية بسرعة ، شغلني هذا الاستغراق مدة يسيرة من الزمن . وقد كشف هذا الاستغراق الحياة في خاطري وجعلها شيئا يفيض بالتفاهات والتراكمات .. وصل الملازم عمار علوش ، الذي هو رئيس فرقة التعذيب ، ليتولى امر التحقيق معي ، وكن بصحبته خالد طبرة . ابتدرني بسخرية انسابت كانسياب الافعى بين الادغال :

ـ مناف جميل كاظم المناف اي حظ اوقعك في ايدينا . ايها الكاتب المفكر !

ثم توجه الي وصفعني بشدة ورفسني .. طافت في خاطري فكرة كنت الهي بها مشاعري : عملية نمو الحركات الهستيرية في التاريخ واستناد هذه الحركات الى العنف والقوة . كما طافت في خاطري عملية القاء القبض علي وكيفية محاولة الهرب التي قمت بها بعد أن لكمت الجاسوس عدنان رحيم وطرحته ارضا . وفشل محاولتي بعد ان ازداد عدد الحرس القومي وبعد ان شهر عدنان مسدسه . منذ أن دخل عمار علوش ادركت انني سوف اعذب وان ما ينتظرني سيىء الى درجة قصوى . لقد كان عمار يبتسم ابتسامة غدر ، اما خالد فانه امر بجلب طعام لي . وكان هذا الامر مفاجأة لي ، بيد انني عرفت انه حيلة وان التودد الذي بدا من جانب خالد هو « مصيدة » بعد ما ابتدرني :

ـ من هو المسؤول عنك ؟ . ما هي مكانتك في حركة الوحدويين الاشتراكية ؟

فاجبته : ـ هذا ما لا علم لي به .

فضحك وقال ـ كل طعامك ثم نتفاهم .. ولا تنس يا صديقي ان لنا طرقا اخرى ولكني اعدك بمعاملة حسنة اذا لنت واصبحت بجانبنا.

لم اذق الطعام ولكنني شربت قليلا من الماء . وبعد ان مرت فترة وجيزة دخل افراد الحرس الذين ارسلتهم الفرقة ـ لتحري مسكني ـ حاملة مجموعة من الجرائد والكتب والصور والرسائل .. حاولت ان احتج على جلب الصور التي ليس فيها ما ينفع الهيئة لانها بمجموعها صور ورسوم عادية الا ان خالد قال :

ـ عندما نفرغ من استجوابك سوف نعيد لك كل شيء لا حاجة لنا به ..

وكنت اعرف ان كل شيء سوف يضيع . ابحاثي وكتبي وقصصي التي لم تنشر في المجلات بعد . لانني رأيت اكداس الحاجات العائدة للمعتقلين مع نفايات الطعام والاوساخ .. وامسك خالد طبرة بيدي فقيدهما وامرني بالجلوس على الارض جلسة القرفصاء . وبعد فترة قصيرة ابتدأت الفرقة في تعذيبي . كانت الصوندات تهبط على ظهري وعنقي ورأسي . وراح الالم يقلب ملامح وجهي واخذ الخدر يدب في جسدي . كان خالد طبرة الملازم الاستثنائي يضرب ظهري . اما ناظم كزار فكان يضرب مفاصل ساقي . كنت انظر اليهما نظرة اشفاق لانني ادرك جيدا انهما يعملان

للباطل الذي يتخذ من القوة طريقا لفرض ارادته .. وتوقف التعذيب وجاء . فقال خالد طبزة :

ـ خذ ورقة وقلما واكتبكل جواب يعن لك عن الاسئلة التي سأوجهها لك .

كانت لهجته افعوانية تنم عن الغدر. اقتنادني احد افراد الحرس الى الشرفة الكبيرة المطلة على النهر وهناك اوثقوا ساقي وطرحوني ارضا . والصقوا على فمي قطعة كبيرة من البلاستر كيلا يسمعوا احتجاجاتي وآهاتي . وسرعان ما اتجه جلاوزة الحرس الى غرفة التعذيب التي اخرجوني منها ، وبعد لحظات عادوا ممسكين بصوندات ولوح خشب عريض . وضعوا اللوح على صدري وجلس احدهم في احدى جهتي اللوح كما جلس اخر في الجهة الثانية .. اما قيود قدمي فقد كانت مربوطة الى حاجز الشرفة الحديدي .. تركت ممددا على هذه الحالة لمدة عشر دقائق ، وكان الحس الداخلي الانساني يزداد حساسية في اعماقي بعد ان اصبحت نفسي كالجدار الذي ينقش عليه اي شيء تعبيرا عن ارادة شخص ما . لقد انفعلت بشدة واوغلت في الاستجابة الى حالتي النفسية واحسست بحاجتي الى تجديد ايماني بالانسان الذي كفرت به . ومرت اللحظات ثقيلة كالموت ، باردة كالعدم . ثم امتدت فوهة رشاش من نوع (بور سعيد) الى رأسي وامتدت معها رفسة سريعة من رجل الرجل المتاني في هيئة التحقيق . وكنت انظر الى اعلى . الى الرجل المنتصب فوقي . الى نظره الذي يشبه نظر البوم . لم يكن كل اعضاء الفرقة قادرين على اخافتي لانني كنت اؤمن انني اسير مع الشعب الذي يؤمن بان الوحدة ارادته وان الاشتراكية طريقه ..

ـ اسمع انك زميل بعثي قديم ناضلت في الحزب اكثر من سبع سنوات ولاجل ذلك نطلب منك ان تكشف لنا تنظيم حركة الوحدويين الاشتراكيين ، وعن الوكر الطباعي والقيادة المسؤولة واذا ما كشفت لنا ذلك فاننا سوف نعاملك كأي رفيق بعثي !.

كان يحكي اسلوبا من اساليبه . وقد لطخته لا انسانيته بشيء فرمزي اللون ينقلب في أي لحظة الى احد الالوان المراد اظهارها . كان يريد استجوابي بلطف لانه يعتقد انني صيد رقيق يلين بسرعة . الا انه سوف يستعمل العنف اذا ادرك ان اللاجدوى ترافق اساليبه اللاعنفية . لان مهمة الجلاد رتيبة تتكون من برودة وحرارة كحرارة الهذر الذي ينسخ العاطفة التي تهدم لانها شاذة . والشذوذ مهمة العبقري الى الاحسن ومهمة الرديء الى الاقبح . كان خالد يضغط قدمه فوق رأسي ويكرر ما قاله منذ لحظات . اما انا فكنت افسر اللحظة التاريخية التي يمر بها العرب ومكوناتها ومجالاتها التي انتجت حزبا دموي الوسيلة والطريق . حزبا جعل من شبابه فئرانا تقرض وزبائن موت لا حياة . وكذا الزمن الذي جعل من الحزب البعثي اداة نشوء فاشية . واداة صنع واتقان شعارات لا تستطيع ان تغير الواقع لانها تفتقر الى حرارة الايمان وصدق الرسالة :

ـ اظن انه لا فائدة من اللين مع هذا الناصري ؟

فأقره جميع افراد الحرس الذين يحيطون بي على ذلك . والحق انهم متعطشون الى التعذيب لانه مهمتهم . والمهمة التي تصبح حرفة تميت الشعور لان الحس الداخلي ينقلب فيها الى حس محرض . ان وجود افراد فرقة التعذيب اصبح مجموعة من الاستجابات الباردة في حالات التعذيب ولذلك فهم يمارسونه دونما شعور .. اخذوا يضربونني بشدة . في جميع انحاء جسمي . اما خالد فكان يردد على مسامعي : « سوف تتكلم يا مناف سوف تتكلم . سوف نقول لنا الحقيقة لاننا سوف نميتك بوسائلنا ! » وفي هذه الاثناء ركب احد افراد الحرس على بطني واخذ يصعد ويهبط فاخذت اقيء كل ما في بطني . وكان القيء لزجا . وقال احدهم وهو يلاحظني بطرف عينيه : « سوف ننتزع منك الاعترافات في حالة هذيان » . وكانت فوهة المدفع الرشاش قد عادت تلامس رأسي فاسلمت امري الى الله واخذت انظر الى السماء وانا ابتسم . الامر الذي زاد حنق افراد الفرقة فبصق اغلبهم على وجهي وانتزعوا قطعة البلاستر من فمي كيما يجبروني على بلع بصاقهم . الا انني اطبقت شفتي مما ادى بهم الى ضربي على وجهي اكثر من ربع ساعة في سبيل ان يدفعوا بي الى فتح فمي .. اخذ نفسي يزداد ثقلا من جراء ضغط اللوح على صدري فاخذت ارفس برجلي وسرعان ما عامت وجوه افراد فرقه التعذيب وراحت تبدو متلاصقة ومستطيلة . ومما زاد في سوء حالي الضرب الشديد الذي كان ينهال على رأسي .. احذت لا اسعر بالم ولا احس بما يدور حولي وقد علمت فيما بعد انهم لدعوا لساني بسجايرهم وادنوا الى انفي عقارا يعيد الانسان الى وعيه ... وانفجرت ضحكات افراد الفرقة وهم يعلقون علي حالة الهذيان التي اصابتني . كنت انا المسرح وهم الممثلون . كنت انا الجذر الذي يشعر بسطحية وجودهم . بالمهزلة المأساة التي يمثلون فيها طبيعة وجودهم ، كنت اهدم فيهم بقايا الضمير . بقايا الخير . وازرع فيهم الشر . لانهم في كل ضربة يقتلون الانسان في اعماقهم . كنت ادفع حزبهم الى الهاوية . الى الموت . الى الحيبة التي تلازم كل جماعة تحاول الافتراء على التاريخ .

جلس على صدري احد افراد الحرس واخذ يزودني بنصائح يظهر كما اسعفتني ذاكرتي انها ماخوذة من كتاب « في سبيل البعث » وقليل منها كان من انشائه . كان شديد السمرة ذا عين عوراء منسجمة مع شكله البشع . اما انفه فكان عريض التموضع ، اما فمه فقد كان يقوم بحركات تشبه حركات الاطفال . كانت تدور في نفسي معركة الحياة . مع الاشياء الهجينة والنقيض الذي يمارس الضد الشرير دائما . وكنت اضطر الى التحدث مع نفسي بلغة غير منسجمة بسبب قوة الصداع الذي اخذت اشعر به . والدوار الذي جعلني اشعر بجسمي وكأنه في قلب السماء . وبعد ما تلا الرجل الاعور مواعظه ، فك قيودي وامر الحرس بحملي الى غرفة التعذيب . حاولت ان اقوم فلم استطع . فحملني اثنان الى الغرفة المليئة خشونة وقسوة وعنفا . انها عار البعث ومهاوي خيبته .. وتمر دقائق كنت فيها اتفحص وجوه رجال الفرقة محاولا ادراك ماهية انفسهم المليئة بأماني الذئاب وتحسرات الفراغ الذي لا شك انه يدفعهم الى الصرامة التي يغطون بها ضعفهم .

قال خالد : اجلسوه على الاريكة .

ثم امر بملء قلمه حبرا .. وفي هذه اللحظات اخذ افراد الحرس يشدون انحاء جسمي بحبال متينة وكموا حلقي بقطعة البلاستر من جديد . وامتدت آلة مستطيلة الشكل الى يدي اليمنى فادركت في الحال انها الالة الكهربائية . وقال ناظم :

ـ اتعرف هذه الآلة التي يتكلم عنها سيدك عبد الناصر كثيرا ؟ انت تعرف ذلك اليس صحيحا ما اقول ؟..

وصمت برهة ثم اردف : نحن فاشست . اجل نحن فاشست كما قال عبد الناصر . وبالفاشية سنشق طريقنا .. ان مقالك الذي كتبته عنا والذي هو في حوزتنا الان يقول ذلك ونحن نصدقك ..

فندق نيو بالاس
ادارة : فتحي نوفل

وسط راقت
خدمة ممتازة
مياه ساخنة
تليفونات بالغرف

جناح خاص
للعائلات
أسعار معتدلة
مصعدان حديثان

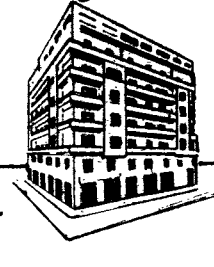

١٧ شارع سليمان الحلبي
(دوبريه سابقا) القاهرة
خلف سينما الوكس بعماد الدين

ت : ٤٥٩٣٦
س ت : ٧٩٧٩١

New Palace Hotel 17 Sh. Soliman el Halaby
Telephone 45936 - Cairo

ـ اسمعوا : ان هذه الطرق غير مجدية لان كثيرين مارسوها قبلكم فباءوا بالخسران .. وسترون ان النتيجة ليست لصالحكم .. الا تشعرون بخجل ؟ الا تنصفون الشعارات التي تنادون بها ..

ولم اكد اكمل احتجاجي حتى انهالت على جسمي الصوندات بقسوة عنيفة مصحوبة بضحكات فاجرة . فادركت ان الكلام لا يجدي وانه لا طائل من اي احتجاج . لان الغرفة التي انا فيها توحي بجو ذئاب لا بجو انساني . كانت لحظات قاسية تلك اللحظات التي انهال علي فيها الحرس ضربا بالصوندات . علمتني اشياء كثيرة . علمتني ان اكون هادئا . وعلمتني عدم جدوى الصراخ والاحتجاجات وعدم احترام الفرقة المذكورة للانسانية والقانون والمنطق . وعلمتني ان الحرس يمتهن التعذيب الذي اصبح حرفته . شيء مضحك ان يعرف احدهم كيف تبني النظم ؟ وكيف يعرف انسان مثلي انهيارهم الذي يلوح امام بصري ؟ ان مهنتهم التعذيب . وقد انقلبوا نتيجة لذلك الى وحوش ، مجرد وحوش ، اما الفكر الذي يتكلم عنه قادتهم فلم يسعف اولئك القادة برؤية مسار التاريخ .. لقد كان خالد طبرة يضحك ملء شدقيه وهو يقرأ ابحاثي ومقالاتي التي كانت امامه . ويستهزيء من كلمات : ديمومة التاريخ . واللحظة الحضارية . والحالة العقائدية والاجتماعية التي وصل اليها الانسان . آنذاك كنت اشعر بتفاهة الحزب الذي ينضوي فيه ووحشيته التي يجسد فيها روح الانتقام ضد الافكار الاخرى .. كان افراد الحرس على يساري ويميني . بعضهم يمسك بصوندات والاخر بالالة الكهربائية التي تمسك بيدي اليمنى . وكان في الغرفة اخرون ينظرون الي وهؤلاء من المعتقلين ويبدو ان الغرفة جلبتهم دون ريب لحضور مشهد التعذيب ربما توقع الخوف في قلوبهم مقدما قبل ان تبدأ في تعذيبهم .

كان خالد طبرة يقضم شفتيه وهو يحرك الآله الكهربائية . وكانت الآلة تجثم فوق ساعدي الايمن بهيئة رتيبة وقد علق ملقطها الاول في معصم يدي اما الملقط الثاني فقد اتخذ له محلا في نهاية مرفقي . وكان هذان الملقطان التي تشبه هيئتها اساور النساء . وانتفضت انتفاضة حادة . واخذ الزبد يخرج من فمي . واخذت اضغط على وثاقي محاولا فكه . وشعرت بيدي اليمنى تنفصل عن جسمي وبكفي تتخلع . واخذت اقضم قطعه البلاستر حتى انبت عليها تلها .. كانت تجربة مريرة ، تراقصت فيها امامي الحياة كفقاعات الصابون وتمزقت فيها كل رؤى فكري وثقافتي . وكان هناك شيء يملأ اعماقي في اللحظات التي كنت اتعذب فيها ، الامل كان دفئي ودوائي . الارتفاع والهبوط . التفوق على الجلادين . والشعور باليأس يجذبني ..

وصرخت بكل قواي عندما ارسلت الانتفاضة الثانية في جسدي واخذت اتلوى واتوتر حتى دمى الحبل انحناء جسمي بينما كانت الكلمات تخرج من فمي متقطعة دونما توقف . وكان افراد الحرس يلقون علي الاسئلة التي وجهوها الي في البداية :

ـ اكشف لنا تنظيم حركة الوحدويين الاشتراكية .

ـ واين الوكر الطباعي والقيادة المسؤولة ؟

وتوقف التيار الكهربائي من اجل ان استطيع ان اجيبهم على سؤالاتهم . والتفت لاقول لخالد :

ـ انني لا أعرف شيئا .

واستبد الغضب بالحرس واخذوا يضربونني بالصوندات على رأسي ! اما خالد فقد ادار الالة الكهربائية واخذ ينظر الى ساعته ... واما انا فاخذت اصرخ بشدة واهذي ، الامر الذي جعل خالد يكمم فمي بقطعة كرتون كبيرة على شكل كرة فلفظتها مما جعله يأتي بحذاء عتيق فيدخله في فمي . وشددت بكل قواي على الحذاء ولفظته ايضا مما زاد حنق خالد وافراد الحرس الذين يتولون تعذيبي .. مرت عدة دقائق وانا على هذه الحالة . شعرت بعدها انني في حلم . واخذت اضحك بشدة . وارى ـ ضحكات الحرس القومي واسنانهم وشفاههم عريضة . فادرك خالد طبرة انني قد فقدت وعيي وان الاستمرار في تعذيبي بالتيار الالكهربائي سيؤدي بي لا محالة الى غيبوبة طويلة ... مما حدا به الى فك الآلة الكهربائية من يدي وفك الحبال من جسمي . وتوقف التعذيب ريثما يصل عمار علوش كما امر خالد طبرة .. وما ان وصل المذكور عمار حتى بدأت التيارات الكهربائية تلذع رأسي هذه المرة . وكانت طريقة التعذيب تختلف اختلافا بينا عما هي عليه عندما ربطت في يدي . فقد اضحت الملاقط عارية فاذا بالانتفاضات تجعلني اهذي اكثر فاكثر وقد عرفت فيما بعد انني كنت اضحك واردد كلمات لا ترتبط ببعضها بعضا . كان بصري كليلا من شدة الانتفاضات العصبية التي انتابتني فكنت لا استطيع تمييز الاشياء جيدا .. طالت الجلسة وامتدت حتى منتصف الليل وكنت قد استعدت قدرة بصري على تمييز الاشاء فابصرت شخصا يجلس امامي يرتدي الملابس العسكرية . وقد عرفته فيما بعد . انه « حازم سعيد » الذي جعلني اعرف من خلال تصرفاته ان القضية بالنسبة لحزب البعث موضوعة بهذا الشكل : تثبيت دعائم الحزب دونما اهتمام للواقع والبشر .. لان الحزب لم يأت بفكرة ايديولوجية واذا لم يثبت دعائمه فان تناقضات الواقع ستمزقه .. اخذ حازم سعيد يضربني على رأسي ، بالكوبروايز ، الذي جلبه معه وهو يردد بين الفينة والاخرى :

ـ ان زبائن مثقفين مثلك يجب تحطيمهم باسرع وقت .

كنت اهذي هذيانا جعلني لا اشعر بما يدور حولي في اغلب الاحيان . وحاولت ان اتماسك فلم استطع لان قواي الجسمية والعقلية قد انهارت فاخذت الارض تتراءى لبصري كرة تدور بسرعة مذهلة وهنا حلوا الحبال التي تطوق جسدي عندما ادركوا انني لا استطيع المقاومة واخذوا يدحرجونني على الارض . وعلى النقيض من ذلك كان فعل الملاكم: ميرو ، فقد امسك بي وانهال على وجهي بيديه . وبعد لحظات امسك اثنان بي وعلقوني في سقف الغرفة من يدي فشعرت بالموت يقترب مني رويدا رويدا .. انهالت علي الصوندات واللكمات حتى ظننت ان اسناني قد سقطت . كنت انظر اليهم واضحك لانني لم اكن اشعر بالم الضربات واللكمات .. وسمعت احدهم يقول :

ـ انزلوه سوف ننزع سرواله وقميصه ونعذبه عاريا .

وهنا انزلوني بقسوة . فاصطدمت بالارض وتكومت كتراكمات الزمن . كان كل عضو مني يئن دونما صوت . اما انا فقد تهت في غيبوبة .. لم ادر كم مر من الوقت وانا متكوم في زاوية غرفة التعذيب جسد بدون ثياب الا انني دريت بآلامي وعرفتها . فهذا رسغي مبطوش وهاتان قدماي لا تتحركان . اما ظهري فقد تصلب كعمود . وشعرت انني قد تقيأت في اثناء غيبوبتي لعابا كالسم الاصفر . كنت ارتجف من البرد فاخذت ابحث عن ملابسي ، فالقيتها قطعا ممزقة خلفي . حاولت ان ارتديها لكي اغطي عورتي فكانت محاولتي شاقة ومضنية .

كان النهار يدفع شعاع الشمس الى الغرفة فزحفت لكي اندفأ وادركت انني قد قضيت الليلة الفائتة في التعذيب . ومع تحرك النهار الى امام تحرك افراد فرقة التعذيب واول عمل قاموا به هو سحبي على الارض كما تسحب الجيف والقائي في زنزانة قذرة . تدعى الزنزانة السادسة كما علمت فيما بعد .. وفوجئت بالعديد من الشباب يحيطون بي يسألونني عن كل شيء :

ـ من عذبك ؟. ما هي تهمتك ؟

وظللت صامتا لا اجيب . فبادروني باسئلة اخرى .. ولما ادركوا انني لا استطيع الجلوس حملوني الى فراش احد الاخوة الوحدويين فذهبت في سبات مزعج حتى منتصف الليل حيث اجلسوني . وافقت على صوت احد افراد الفرقة الذي كان ينادي باسمي .. لم استطع المسير فقد انهارت قواي . الا انني حاولت بكل جهدي ان اصل الى باب الزنزانة ومن سوء حظي انني لم استطع فحملني بعض المعتقلين حتى الباب حيث اخذ الحارس القومي يركلني ويدفعني امامه وحين اصبحت امام غرفة التعذيب . لكمني بقوة فسقطت كومة من لحم ميت. وحاولت جاهدا فحص ارجاء الغرفة بعد ان ادخلوني فيها فالفيت وجوها صديقة اعرفها حق المعرفة . مال علي خالد يسألني هل تعرف احدا منهم فقلت له : لا اعرفهم كلهم .

فقال : ايها القذر . اسمع : سوف نتبع في تعذيبك وسائل الجستابو والفاشست اذا لم تعترف . لاننا صفوة المجتمع وسوف

ـ التتمة على الصفحة ٧٠ ـ

التحقيـــق

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤ ـ

نقسرك على الاعتراف باننا صفوة وانتم حثالة .

وصرخ بشدة كيما يغلغل هذه الكلمة في اعماقي : حثالة انتـــم حثالة ، البعث هو حتف مونكم ايها الاوغاد ايها الذيليون ـ الناصريون.

ورفع افراد الفرقة رأسي فادركت انهم يحاولون انتزاع الاعتراف مني عن طريق : الهذيان . فصممت على الصمت الا ان تصميمي تهـدد حينما باشروا فيضرب رأسي: لقد اخذتأهذي دونما وعي.. وفجأة توقف التعذيب فرأيت الجماعة التي جاءت بي قد تغيرت كما لاحظت ان الشباب الذين كانوا واقفين كمتهمين اثناء تشخيصي بلا معرفتهم هـــم الاخرون قد تغيروا . كان على الارض صديقي ، ح ، موثوق اليدين والرجلين . تسيل من اظافره الدماء بغزارة . وكان وجهه يلتصق بالارض حتى لكانه بلونها ، نظرت اليه طويلا ولما كنت لا استطيع تمييز الاشياء بسبب شدة الضرب على رأسي فقد تلاشت صورته من امامي . ولكنها بدت بعـــد لحظات طويلة عملاقة حتى لكأن رأسه قد شق سقف الغرفة .. اخذ ، ح ، ينادي بالشفقة والرحمة ويتلوى ويتوجع فكان خالد طبرة يرد عليـه: « ان تصرفنا معكم هو تصرف قدري . لانكم ضد تيار التاريخ والقدر هـو الذي يوحي لنا بما نعمل .. »

ان كلمات خالد معروفة لدى جميع البعثيين لانها من اقوال الاستاذ عفلق الذي يقول : ان القدر الذي حملنا رسالة البعث اعطانا الحق فـي ان نأمر بقوة ونتصرف بقسوة ، قال ذلك بصورة اخرى .. كان ترديـد كلمات واقوال عفلق في مناسبات التعذيب اشبه بترتيل الايات لـدى الكهنوت وقد يعجب البعض من غباء الرهوط البعثية وعدم قدرتها علـى تفسير اقوال الفيلسوف البعثي !. بيد ان العجب يزول عندما نعرف ان خصائص التربية الحزبية لدى حزب البعث مرتبطة كليـة بالخصائص الرجعية للغيبية ، فالوعي فيها مشروط بالتصديق لا بالمناقشة والايمان فيها بالاحساس الحزبي لا بالادراك العقلي . واغتيال الادراك الانسانـي يجيء لدى الرهوط البعثية من هذه الخصائص التي هي السمة غـير القابلة للتغيير لدى حزب البعث . كان خالـــد يصرخ بوجـه ، ح ، وبوجهي : ان عقيدة البعث لا تناقش لانها شاملة . وكنت دائما الـوذ بالصمت لان مناقشة هذا الوحش الفاشي لا تجدي نفعا لان عقلـه قـد غاب في ضباب الافكار التي يعتنقها بالاضافة الى انني قد بلغت حالـة الاعياء لان عقلي قد بلغ مرحلة اللاوعي الامر الذي جعلني افقد سيطرتي عليه او سيطرة شعوري ولا احد يتصور مدى اللاواقعية التي احسست بها الاسى لانني وحدي الذي شعرت بفقدان قدرتي على التحكم بعقلي.. اخذت اضحك بشدة واصرخ واقلب كل شيء اصادفه وحالتي هـــذه مرتبطة عضويا وبقدر ما هي طبيعية بقدر ما هي شاذة لانها ظاهرة تنـم عن مدى الانسحاق الذي وصلت اليه .. ان العالم المادي الحقيقـــي الذي امامي كان يبدو لي شيئا خاليا ينحل ويموت ثم يتشكل في صورة ثالثة ورابعة وخامسة وهكذا .

اجلسوا ، ح ، جلسة القرفصاء بعد ان حلوا وثاق قدميه واخذوا يضربونه بالصوندات . واخذ جلاوزة الفرقة يعرضون طاقاتهـم عرضا واسعا . فكانوا يتفننون بتعذيبه . وحين اخذ ، ح ، يصيح اخذ الملاكـم ميرو يوجه له لكمات قاسية ويصفعه بشدة . وقال خالد بعـد ساعات طوال : « سوف نعلمكم كيف تلينون امام ارادتنا غدا . غـــدا سوف تتكلمـون » .

ثم اضاف بلهجة ساخرة : غدا سوف نجعلكم ترون عبـد الناصر باعينكم ، ان كل ما فعلناه معكم لا يعدو كونه تعذيبا هينا اما الادهى مـن كل ذلك فسوف يجيء غدا . اتفهمون ذلك ؟

وسرعان ما اتجهت الفرقة الينا وما لبثت ان سحلتنا الى الزنزانة السادسة . كان النهار يعلن عن قدومه في تباشير الفجر اما نحن ففـي ظلام دامس . ظلام يؤكد النقائض المعادية للشعب بقدر ما يريد دحـر خصائص التقدم والتطور والبناء . والنقائض التي تتحكم بشعبنـــا خادمة لاعداء الشعب اصحاب المال والملاك والبيروقراطيين لانها لا تعرف من وسائل التغيير غير العنف . التغيير الى الاسوأ . الى ايقاف التاريخ والعودة به الى الفاشية وعهود التأخر واللاانسانية .. ان نقائض البعث التي يفلسف بها ثورته هي نقائض الثورة الحقيقة لان افكارها واعتماداتها وارتباطاتها لا تسير في خط مستقيم مع تيار الواقع الاجتماعي . وبالرغم من اساليب التكنيك والعلم التي تخدم الافكار الرجعية فان تلك النقائض لم تستطع ان تضع اساليب التكنيك في خدمة اغراضها الا داخـــل وسائل الخصائص الرجعية التي يتمتع بها التفكير البعثي . لقد مـــزق البعث اموال الدولة وحطم اقتصاديات البلد وخدم اصحاب الامـلاك ، والمغامرين من ذوي الرتب العسكرية . امـــا الشعب نحن ففي ظلام : بطوننا تصيح . وعيوننا تتقوقع في حلكة الليل الطويل الدامس ..

الزنزانة السادسة ارض مصبوغة بالقاذورات . بنفايات الطعام . اما جدرانها فمصبوغة بدماء الرجال التي حولت مكاسب البعث مـــن الكم الى النوع . من حزب بسيط الى حزب يدير امور قطرين سوريـا والعراق .. وبدمائنا سوف يصبغ البعث رايته الاشتراكية . وهـــذا مفهوم اغنى واكثر تطورا مع عمليات التطور التاريخية !!.. مالي اهذي يا نفسي . فليكن الانبثاق في الظلام . فالتاريخ جديد .. التاريخ نهار وكل شيء يولد في الظلام يكشفه النهار .

بلى ان التاريخ نهار . والرؤي والفعل هما ارادة الانسان فـي التاريخ . هما طرفا التعبير عن الارادة ، والحضارة هي مركـز اطراف الحياة : العمل . والرؤى ، الغبطة والسعادة . الالم والعذاب والـى جانب هذا الوجه الاخلاقي في الوجه التقدمي في كـل رؤي تحاول ان تبلور خصائص الواقع وتبني فيه كينونة جديدة منبعثة مـــن الحالة التاريخية . اما تجاهل خصائص الواقع وتزويق الاشياء فيؤدي الـى ايقاف العالم وتبديد طاقة اللذة والايمان والعقل في الكائن . والسيطرة على المكان والزمان عن طريق القوة المجردة يخضع الانسان دونما تبريـر او قبول ولكنه خضوع الخائف الذي يرى نفسه خارج الواقع لا فيه . والقوة المجردة لعب ميكيافيلي ورياضة سادية ومغامرة تتضمن افتراضات ايمانية تحرك الاعصاب والقوة والجبروت قبل ان تخاطب العقل والادراك والوعي . وقبل ان تحرك الواقع وتنسف حواجزه الماديـــة .. الرؤي بطولة فكرية تفتح الحياة في نظرنا وتغير الوجود ، وجودنا ، الى الافضل الى الضرورة والقدرة على التحكم بالزمان والمكان . والشجاعة فـي الرؤي : ملء فجوات العالم . ملء نقائضه . تغيير الواقـع وجعلـه انعكاسا للرؤي . انكاسا للذات . واستسلام العالم لقوة الرؤي اتحـاد بشجاعة الكائن الذي يحمل خصائصها ، فتزول حينذاك الحدود بـين الظاهرة والسببية . اذ ذاك يجد الانسان نفسه . واذ ذاك لا تكون القوة مجردة لانها على مستوى الفكرة قدر الحياة لتغيير الواقع والتغلب عليه .. وعجز الفكرة عن تقديم رؤي قادرة على تفسير خصيصة الامور يعني انها حلمية تخاطب الكائن بلغة غيبية . في ذات الوقت الذي تقدم نفسها للواقع بطيالس تخفي الطموح الشخصاني الـــذي يترصد الوقائـع ليستغلها ...

الزنزانة السادسة تقعي فوقنا ، تسحقنا . وكأنهـا ثقـل الوجود بكامله ، قذفني الحرس القومي فيها كما تقذف النفايات . فوجـــدت عالما يقف على حافة الهاوية ، شبيها بعالم الموت . بلى انه عالم الموت بعينه . عالم القبور فالزمان لا تعرف حدوده : ليله ونهاره ، والشباب يأنسون من العذاب والالم ، كأنهم قد صعقوا فانسحقوا . كان كل واحـد منا يوآسي الاخر . والموآساة حركة في تعاطف الروح الانسانية . بـدء معرفة الالم وتبادل الحب .. اننا بذلك نصور اعماقنا ، غريزتنا ، عقلنـا الذي يريد ان يرى العالم غير مشوه ، وحين نخاطب بعضنا نشعر بـأن انسحاقنا هو شيء معكوس من بطولتنا لاننا عقبة امام تيـــار الشر .. شعرت بالغبطة لان جراحي تعمق انسانيتي ، وشعرت بالتعمق البعيـد

لمعرفة باطن الانسان عندما بادر الرجال الذين في الزنزانة الى مؤاساتي .. كان زمننا هو لحظات المؤاساة ، يجري كالماء الذي يبحث عن طريق له . اما حساسيتنا فكانت على صعيد الالم واللذة بين ادراك وحشية الاعماق ووعي انسانية الباطن . الحسرة والغبطة تدفعان شعورنا الى التألم والتأوه على الانسان . والتألم طاقة حياة لانه منها. اما التأوه فمجهود ضائع ... الليل تجسيد فاجع للالم . يرتفع فيه صراخ المعذبين . الليل زمان متشابه . انه يبدو مطابقا لما نراه ونسمعه فنحن لا نتعرف على شيء جدير فيه . انه تكرارية ممضة اعتدنا فيها ان نسمع الصراخ وحكايات العذاب . اما الاشياء كل الاشياء فقد اخذت تعبر في خواطرنا كالغيوم الداكنة .. ان شعورنا شيء يضيع ، يتلاشى في اللاشيء . فلا يكاد احدنا يحكي او ينظر الا وتصبح اللحظات التي يتغرقها ذكرى مؤلمة . جزءا لا طعم له الا الالم . ولكن الذي يدعو الى الفخر ان لحظاتنا يملؤها الايثار .

كانت حساسيتي تزداد كلما شعرت بافراط هياجي العاطفي وتوكيده لوجودي وكلما شعرت بغيابي الوجداني بعدما اصبح عقلي كليل الادراك. كانت حساسيتي مزيجا من الكآبة والعاطفة . وكنت اضجر من الحاح المعتقلين على التحدث معي لانني وجدت نفسي متجذرة في الوحدة والكآبة والانعزال ، فثمة حسرات تبطن افكاري ، وثمة عواطف زاخرة في خاطري . حتى الضحكات التي كان يطلقها المعتقلون لتسليتي قد صبغت بالحزن : ان الوجود يبدو امامي مموها . اما الزمان فكان يبدو لفكري ظاهرة معادة مكررة . وهذا الوضع الوجودي لم يترك لي هنيهة فرح ، الامر الذي جعل بعض المعتقلين ينفرون مني . الدهر شقائي . الذي يصدر عن حساسية مرهقة . انه شقاء التمرد وحزن الثورة . وكآبة الكبرياء المغتالة والانسانية الضائعة . وحس الموت الذي يطبق على وجودي . على حاضري فيقتل فكري ورأيي وحريتي ، الحزن والكآبة هما صيحة تمردي ضد الواقع الذي انا فيه . ضد الواقع ككل ، ضد الديماغوجية التضليلية . والديمقراطية الغيبية التي جسدت طبيعتها الفوضوية : استثمار الاخرين . واغتيال ارادتهم وحريتهم .. ان ديمقراطية الجماعة القوية سواء كانت حزبا او قلة ضئيلة تتفوق على الاغلبية بالمال هي ديمقراطية كتلوية وليست ديموقراطية شعبية لان مفاعيلها تحتوي حرية تلك الجماعة التي تستعبد الاخرين وتمتص قواهم وتسخرهم لصالحها وتستهدف احلال نفسها محل الشعب الذي تضلله . انها تفترض بنفسها قيمة اكبر من الاخرين ولذلك فهي تعتقد ان الشعب : هي ، ولذلك تسعى الى تقييد حرية الفكر والارادة والتعبير والعمل السياسي وليس هذا الافتراض يحتوي رؤي فلسفية تشرح الواقع وتبنيه على ضوء خصائصه وابعاده وقواعده لانها منبثقة من فكر طبقي يفترض الطليعية والقدرة على التفوق . والفكر الطبقي هو سيكولوجيا الحزب او الجماعة ، وهذا ما يؤكد طبقية الاحزاب الفاشية التي تعتقد انها قادرة على تسيير التاريخ والتفوق على طبيعة الاشياء . وفكرة التفوق الشخصي تشبه فكرة التفوق المالي لانها استغلالية تقوم على استثمار الاخرين من اجل الحزب والجماعة المسيطرة . واحلال شخصية جماعية او فردية كتلوية عن طريق القوة او الشعبية المزيفة ، والشعبية المزيفة كما ارى تظهر مدى رداءة النظام لان الانحراف بالجماهير والتغرير بها بعد التقرب لها بالفاظ طنانة وعبارات ضخمة يؤدي لا محالة الى فاشية تامة تستغل شعور الجماهير وتوجهه الوجهة غير الصالحة . وتمثيل الاحزاب الايديولوجية السيكولوجية البارونية يندلع من موقف تاريخي متأزم ، اقتصاديا ، واخلاقيا ، واجتماعيا . كما تنبثق الجماعات التي تنتمي الى تلك الاحزاب من المواطنين ذوي الميول النفسية السادية الذين يعتقدون انهم هم الذين يعرفون كل شيء . وتنطلق ايديولوجيا تلك الاحزاب من التبشير اولا وقبل كل شيء . ثم تلجأ الى الضبابية الفكرية حتى تستطيع ان تتلاءم مع شعورها بالتفوق : ان تنفسها الفكري يكون دائما من التزويق واللاتحدد . وهكذا كان الحزب النازي . وهكذا اصبح حزب البعث . والبعث محاولة لتجسيد عنصر الاستثمار الشخصي كما انه محاولة لتجسيد طبقية حادة تستبدل الطبقية المادية بطبقية شخصانية تطرح مسألة الحزب دونما اعتبار لماهية الانسان الذي تشده . والموقف الذي تدافع وتنطلق منه . ان البعث مليء بالتجاويف الفارغة . والعنف والفاشية يعبران عن الطبيعة السيكولوجية لقادته وبعض رهوطه .

الزنزانة صخرة الشقاء . جدرانها عنيدة راسخة والانسان فيها راسخ في الشقاء ، في البؤس يواجه بحساسيته الحادة الاختناق المعنوي ، انه محترق وضبابي . لان عقله مختل . كعقل الكائن الذي يعيش المدهش واي مدهش نرى في الزنزانة ؟. انه الانين ، انين المعذبين الذي يقوم كالايقاع في مشاعرنا . انه ايقاع يمتزج بمصيرنا الذي يتأرجح بين البقاء المرير والموت .. واقعنا غامض . وفكرنا لا يستطيع اعادة تكوينه ففكرنا كليل . كما انه لا يستطيع ان يتحدث عنه ، لان الحديث عن الواقع غير مناسب فالجواسيس كثار في الزنزانة . الجواسيس يتمتعون بخيرات فرقة التعذيب البعثية : مقابلات ، ومعاملة حسنة ، كل ذلك لانهم باعوا الضمير . هنا في الزنزانة كل شيء جامد بقدر ما هو مستفجر ومتفاعل لان عاطفة الكائن متقدة في ذلك الموضع . ان انفسنا ليست شاهدة وانما مهصورة لان النكال والعسف قد استبدا بها . ولذلك فالقلق يسيطر علينا ، حتى في النوم احلامنا مرعبة . العالم يصير في مشاعرنا من خلال الالم الذي هو نسيج اجسامنا . اما رؤانا وافكارنا وثقافتنا فهي قبض ريح . ان كل شيء يتخلى عنك . حتى تمردك ضد الواقع الزائف . واذا ما صمدت وفكرت فان حسك الداخلي يتحول الى اتون ، وفكري اصبح في هذا المستوى ، مستوى الاتون .. حساسيتي المتمردة اخذت تتقد ، تتفجر بقوة الامر الذي جعلها تنعكس على تصرفاتي التي اصبحت سريعة وعفوية بدون رؤية . هكذا انا . انتظر الغد الذي مر ومرت ثلاثة اسابيع بعده كلها ايام متشابهة او تكاد ، في انتظار الغد الذي اوعدني به خالد بعذاب لا يطاق . وجودنا يجسد جدلا مكتئب ،لابعاد لان الحذر من انزلاق اللسان يسيطر علينا . اننا نعاج من نتاجات الزمان الذي نحن فيه . زمان يقرن الالم باللاشيء. كما يقترن الظلام بالنور .. المكان هو شقاؤنا الاكبر ، نتحسس كل شيء فيه بافراط وهياج ، فالشقاء هو حسنا الثائر من اجل انسانيتنا. اما العلاقة بيننا وبين الاشياء فعلاقة تسير في سواد مجلجل بالعتمة لان النور عصي علينا ـ وان كانت افكارنا مؤمنة بالغد ـ .

التاريخ يسير في غاية الوضوح ، الى امام ، وكل جماعة تحاول ايقافه انما تحاول المستحيل . بيد انه رغم ذلك فهناك شقوق وثقوب في التاريخ تتسع لتمرير بعض المواقف المتربصة التي يؤدي بها حزب او طبقة دور الطاغوت . لان التاريخ مجال يضم تناقضات داخلية بقدر احتوائه على الحقيقي .. فالتناقض هو المحتوى الداخلي لتحول التاريخ، والتناقض يكمن في صراع الاتجاهات المتعارضة . وعليه فان التطور سيؤدي الى اندحار الاتجاهات المضادة لانتقائية التاريخ . ومن هنا ومضة النور في افكارنا وتالق الايمان بحتمية اندحار الشر الرابض فوقنا .. ومن هذه الناحية . كنت افكر بأثبات وجودي في الخارج والعيش بامتلاء الوجود النضالي .. سليقة الانسان الواعي فكرة حسه المتناغم مع عقله الذي لا يخضع للانفعال . وسليقة الشجاع في خاطري، في ذاتي . تريدني موجودا في واقعي . اما الغياب فعدم ، الغياب يقتحم صيرورة ذاتي ، يحاول ان يدفعها الى تفاؤل كلاسي ، لانه يتحد بوجودي فيجيله الى بلادة فكرية في موقف فاجع . والبلادة لا تحتمل في الموقف الفاجع .

الزنزانة والمعتقلون والموقف والزمان والمكان تغرس الكآبة في ، الحساسية التي جعلت ذاتي اشبه بالمعسكر المفتوح للعدو ، كل الاشياء مرآتي .. كل الاشياء تتحداني . اما استجابتي فتفكير عميق . يسود فيه الالم المر المرشوق في كياني الذي يتعلق برؤاه ، بحسه ، بشهادته الضميرية . كياني يترنح ويطفر من خاطرة الى خاطرة والزنزانة صحراء ليس فيها الا اصوات الاشباح ، ليس فيها الا الكهوف ، اما الممرات فطريق الافاعي والثعابين .

ـ هذه الليلة سوف تزورنا ، لا داعي للتفكير ايها الكاتب !

انه صوت خالد طبرة الذي كان يخاطبني . وكأنه يخاطب خروفا عنيدا لا يريد الذبح . كان يبتسم ويتكلم مع المعتقلين وطوال مدة نصف ساعة كان يشمت بهم ..

ان تتكلم عن خالد واعضاء فرقة التعذيب فانك انما تحاول المستحيل لانهم بشر يجمعون بين الصفات السادية الانحرافية والصفات النفسية التي يتحلى بها الشقاة ، والكيفية التي تطبع النفس بطابع السرعة والتشويش وعدم الثبات . والتعذيب بالنسبة لهم هو بمثابة صلوات وتعاويذ . اعني انهم قد تكيفوا نفسيا مع الجو الذي هم فيه ولذلك اصبح الصراخ ، صراخ المعذبين كالافيون بالنسبة لهم . ان عالمهم ضائع بدون تعذيب . لقد حلت فيهم الرابطة الوحشية وافترست الانسان في اعماقهم مما ايقظ حالة السديم والضباب في عقولهم ، الحالة التي تتلاءم مع التعصب وكره الاخر ومقت الحرية . والمعروف ان معظم افراد الحرس يتميزون عن الاخرين بهذه الصفات البسيكولوجية التي جعلتهم يجسدون نفسياتهم في الشارع والمدرسة والمعمل والدائرة . فهم يبتزون الاموال من الناس . ويغلقون المحلات والمتاجر ويصادرون الحريات ويعتدون على الفتيات الخ التصرفات اللااخلاقية التي يعرفها الشعب في العراق ..

هبط الظلام رويدا ، رويدا ومع هبوطه اخذ الصراخ يرتفع من غرفة التعذيب ، والصراخ هو احتدام الموقف المحزن في انفسنا . اما المكان فلا يتيح اي شيء الا اذا كانت ارادة الكائن قوية تستطيع اقتناصه . المكان بؤرة نفسية حادة يستسلم فيها العالم دونما شرط لان القوة تستعبد كل شيء ، حتى تفكيرنا ، !! ، انها قوة السلطان الغشوم وليست قوة الحيوية الفعالة التي تغير التاريخ ، وفي القوة عبث الانسان بالانسان وغضبه يحتدم في التضليل ورياضة في التعذيب، والتعذيب هو لعب الفرقة الخاصة . لعبها الذي يهز الحياة لانه يدفن عناصرها . وطبيعي ان هز الحياة وهدمها وبناءها على الهوى الانفعالي هو انعكاس عجز الفكر المسيطر عن اقتحام الواقع وتحويله، لان الشعارات السطحية فيه اكثر من المحتويات ..

انتصف الليل . وكان وعيي متعلقا بجو يتحرك بفعالية حارة شديدة الحرارة . وكان وجودي يعجز عن السيطرة على فكري لان الشوق يدفعني الى مخاطبة الموت ، وفي مخاطبة الموت تتغير صورة العالم وتصبح عبثية الوجود منبثقة من الزمان الذي ينمو من خلال الهاوية النفسية التي اندفع اليها ، انني اخاطب الاشياء من داخلها . ومن خارجها المغلوب على امره الامر الذي يجعل عبث الحيلولة دون العذاب مجسدا . ويجعل الحزن العميق في باطني يدفعني الى قهر الموت والالم. لقد تمنيت ان اصبح حجرا حتى لا اخضع في النهاية الى وحوش فرقة التعذيب ، ولكن كل شيء مدان حتى وجودي الفكري الذي يتداخل ويتغير ويحير ويتيه من خلال مفاجآت السقوط الذاتي ...

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل حين وصل ناظم كزار ليتولى امري . اجتزت الممر الطويل . وبلغت غرفة التعذيب .. دخلت وكان نظري يكتشف خالد وعمار وعباس خفاجي وبعض افراد من الحرس لا اعرف اسماءهم . وجلست على الارض كما ارادوا بعد ان اوثقوني بجامعات حديدية بيضاء .. ومرت لحظات ثقيلة اخذت اسائل نفسي عن سبب عدم المباشرة في تعذيبي . وظللت اتكهن واقول : « ربما كانوا ينتظرون بعض رفاقهم ، او ينتظرون وصول الالات الكهربائية الجديدة التي اشتروها من الخارج ، والتي هي الان بحوزة الحرس القومي في قصر النهاية » . وادركت من الاشارات التي دارت بين اعضاء الفرقة الخاصة انهم ينتظرون بعض الرفاق الكبار .. وقد استكشف بصري الاريكة النظيفة المجلوبة خصيصا لهم وعلب السجائر الافرنجية الموضوعة على الطاولات . فتأكد لدي ، أن الفرقة رأت في امري اكثر مما يجب . امسك اثنان بي واقعدوني على احد الكراسي الخشبية ثم وضعوا خوذة فولاذية برأسي . وكانت الخوذة تشبه الخوذ العسكرية الا انها تختلف عنها بوجود صمامات ونوابض وزوائد حديدية في جوانبها .. مرت دقائق قليلة لم تلبث الحركة بعدها ان تزايدت في الغرفة ، واخذ افراد الحرس ينظمون الارائك ويتهيأون لاستقبال يوشك ان يعلن عن قدوم اشخاص لهم مكانتهم .. الجلادون المسؤولون عن الفرقة يعودون .. المكان يزداد وحشية لان الترقب فيه سيد اللحظة .. ادار بعض افراد الفرقة وجهي الى الجدار ، دخل الرفاق الكبار ، فلم اشاهد الا رؤوس اقدامهم ، وتهيأت لادارة وجهي فلم استطع .. كان يقف خلفي احدهم ، وكان يوجه الي اسئلة سريعة .

ـ انت جميل . يجب ان تعلم اننا جئنا لانقاذك اذا اخبرتنا الحقيقة . قبل ان يبدأ الرفاق في تعذيبك من جديد بالالات الكهربائية التي جلبناها للخونة من الغرب . انك شاب مثقف ونحن نحب ان نعامل المثقفين بلين .

كان يتحدث بلهجة ساخرة . ولما وجدني الوذ بالصمت فتح احد الصمامات الخلفية في الخوذة فانتفضت انتفاضات شديدة واخذت اعض اكتافي . وشعرت انني اصبحت شخصا اخر وانا اتوتر واتوجع واتلوى ، ولكنني لم استطع ان ارفع صوتي لان قواي قد خارت تماما .. جلس احد الضيوف الكبار امامي واخذ يوجه الي الاسئلة :

ـ اين المطبعة ؟ من هم العسكريون الذين يناصرون حركتكم ومن هو مسؤولكم ، ما هو دورك في القيادة ؟.

ولم استطع الكلام ، فهززت رأسي نافيا علمي بشيء . وشعرت وانا اقوم بحركات النفي ان جبلا ثقيلا فوق رأسي . وان اذني اليمنى قد انبثق منها تيار ناري . وان انفي اخذ يسيل دما .. ومرة اخرى حركوا صمامات الخوذة فشعرت بعضة نارية ورجة لا توصف . الا ان توتري كان ضعيفا .. وعاد اولئك الضيوف يستجوبوني واحدا بعد واحد ، وكانوا يبدون في نظري متداخلين ، قصار القامات . حينا ، وطوال الاقدام والرؤوس احيانا اخرى .. مهما يكن فقد بدأت لا اشعر بالانتفاضات القوية ولا بالاشياء الخارجية التي تدور حولي ، ولما احسوا بذلك نزعوا الخوذة عن رأسي . وفكوا ازرار ملابسي ونزعوا قميص النوم الذي كنت ارتديه ومزقوا لباسي الداخلي ، وهنا نهض حارس قومي وجعل يلكمني ويلكمني بشدة . ثم اعادني الى الكرسي الخشبي . وبعد لحظة رشوا الماء على جميع انحاء جسمي وجاءوا بالملاقط الكهربائية التي عذبوني بها اول الامر ومرروها على بطني وظهري واسفل عيني اليمنى .. كانت حركاتي دونما وعي وكنت اسقط على الارض فيسحبونني من اقدامي ويباشرون في تعذيبي من جديد .. ولم اعد اتحرك بعدئذ ولم اعد اشعر بالزمن ولم اعد ادرك ما يدور حولي . سقطت في اغماءة بعيدة ، ولم اشعر بالوجود الا بعد انقضاء الليل وانحسار النهار ، وكنت قد استنفدت قواي وفقدت عقلي جزئيا لانني لم استطيع ان اتذكر اسمي وسبب وجودي في الغرفة التي انا فيها . وفيما انا غارق في تأمل العالم الذي بدا لي غريبا وجديدا . دخل ناظم وقال : ـ أانت حي لحد الان ؟.

فلم اجبه . فاذا به يلكمني بشدة ويرفسني وبعد لحظة حضرت الفرقة فاذا بافرادها يمسكون بتلابيبي ويمددوني على الارض ويأخذون في ضربي بالصوندات .. لم اكن اشعر باي وجع لان حساسيتي قد انهارت . وذلك ما زاد حنقهم غضبا لانهم كانوا يحسبون ذلك مقاومة ، لقد هجر عقلي نفسي فلم اعد ادرك معاني الاشياء . ان كل شيء يستسلم للامعنى في نظري . الاشياء تعبر امامي كالضباب . تتراءى . ثم تموت . ثم تبدو في شكل اخر وسرعان ما تنسحب . واللحظات تضيع في اللازمن ، لان الحاضر لا يبدو لعقلي حتى ولا لونا باهتا . انه ظلال تملأ المسافة بيني وبين العالم . وجودي فضاء لا حدود له تمتزج فيه النسبية والمطلق لانه يتلاشى ثم يعود كالحجر الثقيل المتجذر عميقا في الارض ...

يا الهي . ان الاشباح تطوقني من كل جانب . ان الضباب يخنق انفاسي . ان كياني يشعر انه منفصل عن الاشياء بقدر ما هو ملتصق بها التصاق التراب بالارض .. كان وجودي يجسد مأساة فاجعة ، ولحظات قاتمة .. بحيث يبدو العالم امامي شبحا مخيفا لا افهمه . لا استطيع معرفة نوعه ، اعجز عن رؤيته واضحا . انني لا استطيع له دفعا . لانني عاجز ولا حيلة لي . قد يكون ذلك الشبح . شبح الموت . لكني عرفت فيما بعد انه رؤى عقلي الميتافزيقية . ولم يفارقني ذلك الشبح الا بعد ان وضع ناظم الملاقط الكهربائية في اذني .

بغداد : **جميل كاظم المناف**